

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
كلية الآداب / الجامعة المستنصرية

أطروحة تقدم بها طالب الدكتوراه

محمد قاسم عيبي

إلى مجلس كلية الآداب / الجامعة المستنصرية ، وهي جزء من متطلبات نيل
شهادة الدكتوراه في فلسفة اللغة العربية وآدابها

بإشراف

أ.م.د.
باسم صالح حميد

أ.د.
عناد إسماعيل الكبيسي

٢٠١١م

١٤٣٣هـ

المقدمة

الحمدُ لله الأول قبل الإنشاء والإحياء ، والآخر بعد فناء الأشياء ، وصلى
الله على النبي المصطفى ، تمام عدّة المرسلين، وآله الطيبين الطاهرين ، وصحبه
الغزّ المنتجبين ، وعلى من اتبعه بإحسان إلى قيام يوم الدين .
وبعدُ ...

فإن اكتشاف الآخر عملية ممتدة في الزمان ، وهي لا تتوقف ؛ لارتباطها
بأسباب التفاعل الإنساني بين الأمم والشعوب والثقافات المتباينة ، وعلاقتها بالواقع
والحياة والإنسان ، بيد ان هذه المسألة أصبحت أكثر حضوراً وإلحاحاً في العقود
الأخيرة ، ولا سيّما بعد أن شهد العالم تحولات عدة ، وسم بها الربع الأخير من القرن
العشرين

لقد برزت الحاجة إلى اكتشاف الآخر في الفكر العربي المعاصر مع بداية
النهضة العربية الحديثة ، عقب غزو نابليون بونابرت لمصر في حملته المعروفة
عام ١٧٩٨ م ، وبرز تقدم الأنموذج الحضاري الغربي ، مقارنة بوضع التخلف
الذي كانت ترضخ فيه المجتمعات العربية في ذلك الحين ؛ الأمر الذي يفسّر التراث
الخصب لأدب الرحلات في الفكر العربي المعاصر ، الذي ابتدأ في رحلة رفاعة
الطهطاوي عام ١٨٢٦ م ، حين أوفده محمد علي حاكم مصر إلى فرنسا ، التي
سرعان ما أصبحت تقليداً شارك في ترسيخ قواعده أجيال من الرحالة العرب .
وإذا كانت موضوعة الآخر قد مثلت حافزاً مركزياً لتبلور سردية الرحلات في
الثقافة العربية ، وشكلت إحدى الدعائم الأساسية لنشأة الأصول الروائية العربية
الأولى ، بوصفها مقولة مؤسّسة للرواية العربية الحديثة ، من حيث إسهامها في نشأة
الرواية ، وتطورها في الثقافة العربية الحديثة ، ومن حيث بنيتها .

فإن الرواية العراقية المعاصرة، بدورها لم تتطور بمعزل عن متخيل الآخر،
واستبطان إنزياحات الهوية ، وفي هذا السياق شكّلت نصوص ما اصطلح عليه
ب(روايات اللقاء الحضاري) ملمحاً بارزاً في مسيرة الرواية العراقية ، ومثلت قضايا
الاختلاف والائتلاف انشغالاً معرفياً وجمالياً في تجارب كثير من الروائيين
العراقيين ، تواتر حضوره منذ مرحلة التأسيس - التي مثلتها رواية سليمان فيضي
(الرواية الإيقاضية ١٩١٩)، ورواية آكوب جبرائيل المحامي (عجائب الزمان

في صرح عروس البلدان (١٩٢٨) ، ورواية محمود احمد السيد (جلال خالد ١٩٢٨) - وحتى يومنا هذا ، على نحو طبعه السعي المستمر إلى تجاوز الصيغ المأثورة للذات والآخر، والبحث الدائم عن تنويعات صورية مغايرة ، لتنتج هذه النصوص على مختلف مراحلها صياغات جمالية بثتى السمات : الرفض والقبول ، والتواصل والتقاطع ، بالقدر الذي تتقاطع فيه الإحالة على مستويات متنوعة من صيغ التفاعل مع الآخر .

وغني عن القول إن صورة الآخر في الرواية العربية قد عولجت باتساع، موضوعات، وأفكار، وعلاقات سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية، وما إلى ذلك ، فقد عني الباحثون برصد التجليات الروائية للعلاقة مع الآخر ، من مثل : دراسة محمد كامل الخطيب (المغامرة المعقدة ١٩٧٦)، و دراسة جورج طرابيشي (شرق وغرب رجولة وأنوثة ١٩٧٧) ، و دراسة فيلافت روتراود (صورة الأوربيين في المسرح والقصة العربيين ١٩٨٠) ، ودراسة نبيل سليمان (وعي الذات والعالم ١٩٨٥) ، ودراسة عصام بهي (الرحلة الى الغرب في الرواية العربية الحديثة ١٩٩١) ، ودراسة منصور قيسومة (الأنا والآخر في الرواية العربية الحديثة ١٩٩٤) ، ودراسة محمد نجيب التلاوي (الذات والمهماز : دراسة التقاطب في صراع روايات المواجهة الحضارية ١٩٩٨)

الآن الرواية العراقية لم تزل ميداناً خصباً جديداً ، لم يحظَ بدراسات مستقلة ، كما هو الحال مع شقيقاتها في الأقطار العربية (سوريا ، والأردن ، وفلسطين ، ومصر ، والسعودية ، والجزائر ، والمغرب ، والإمارات العربية المتحدة)، إذ لم تُدرس إلا بمقاربات جزئية غير شاملة من مثل: (الرواية العربية والحضارة الأوربية لـ د شجاع مسلم العاني ١٩٧٩) ، و(وعي الذات والعالم لنبيل سليمان ١٩٨٥) ، و(الذات والمهماز لمحمد نجيب التلاوي ١٩٩٨) ، و(جماليات وشواغل روائية لنبيل سليمان ٢٠٠٣) ، ودراستي د.نجم عبد الله كاظم (نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة - بحث في مجلة كلية الآداب ٢٠٠٥ - ، والرواية العربية المعاصرة والآخر ٢٠٠٧) .

ومن اللافت للنظر أنّ هذه الدراسات على أهميتها ، لم تُعَنَ بصورة مستقلة في الرواية العراقية ، على نحوٍ يسجل خصوصيتها ، ويثبت ملامح رؤاها بشكل واضح ، على الرغم من توافر العوامل الموضوعية للنهوض بدراسة شاملة تخصّ الرواية العراقية التي تعنى بالآخر ، من مثل : وفرة النتاج الروائي الذي يغطي وجوها عدة لقضية العلاقة مع الآخر ، وتعدد صور الآخر، وتنوع دلالاته، تبعاً للمواقف المتباينة التي سجّلت حضور الآخر ، سواء أكان هذا الحضور داخل الوطن أم خارجه ؛ ليأتي استحضارها بوصفها نماذج من ضمن الرواية العربية ، مع أنّ معظم هذه الدراسات ركّزت على صورة الآخر الأجنبي ، على حساب صورة الذات على أهميتها ، وارتباطها بصورة الآخر، ولعلّ ذلك نابع من تبنيها لفكرة المركزيات ، إذ يترك الباحثون الذات لينصبّ اهتمامهم على الآخر ، وأخيراً عدم الالتفات إلى صورة الآخر الداخلي ، التي يمكن عدّها أهم خصيصة تنماز بها الرواية العراقية في هذا الجانب، التي تستمد وجودها من بنية المجتمع العراقي القائمة على التعدد والتنوع .

ولبيان إطار الدراسة وفرضيتها ، لا بد من إيضاح مسألة تتعلق بطبيعة البحث وأهدافه ، وهي انتماء قراءة صورة الآخر في سياق الدراسات المقارنة الحديثة إلى ما يعرف اليوم بـ الصورة أو الصورولوجيا *Imagology* ، الفرع الذي يهتم بالتصورات التي تقدمها الكتابات الأدبية عن المجتمعات والثقافات المتباينة، وعليه فإن قراءة صورة الآخر ، لا تسعى بتحليل الصور والأحداث وعلامات الفضاء الزماني والمكاني، التي تعنى بالفروقات والاختلافات ، إلى تبرير مواقف القبول أو الرفض لوجهات النظر أو الأفكار التي يعبر عنها النص، إنّما الهدف الأهم تعميق الوعي بالنص وبالعالم ، ومن ثمّ النظرة إلى الآخر من منظور الفكر النقدي ، الذي يبدو أكثر ملاءمة لشروط الكتابة والفكر في عالم تتداخل وتتفاعل ثقافته بوتيرة لا سابق لها.

ويمثل الآخر في دراستنا هذه : الخارجي (الأجنبي) بصفته غرباً أو شرقاً، تبعاً للموقع الجغرافي الذي يوجد فيه ، والداخلي (المحلي) ممثلاً بغير العربي بحكم المرجعيات القومية التي تنطلق منها الرواية العراقية ، و غير المسلم الذي

يحدده التباين الديني في بنية المجتمع العراقي ، فضلا عن السلطة السياسية ، بوصفها أحد أشكال التقاطع والاختلاف مع عامة الشعب .

وتشمل مادة البحث أهم الروايات الصادرة بين عامي (١٩٧٠ - ٢٠٠٩) ، التي تعنى بقضية الآخر ، ويعود السبب في تحديد هذا الإطار الزمني لدراستنا ، إلى أمرين : يأتي الأول استجابة لدواع منهجية يقتضيها البحث ؛ بغية الإحاطة بجوانب الموضوع ؛ ليتاح فيما بعد الخروج بنتائج مرضية ، على حين تمثل الثاني بما تعنيه هذه المرحلة من خصوصية فنية اتّسم بها النتاج الروائي بتنوع الموضوعات ، والتميز في الرؤية والتشكيل ، فضلا عن انفتاح النص الروائي العراقي على الآخر بشكل واضح ، مما أثرى وسائل التعبير الروائية وأضاف إليها أشكالاً تعبيرية جديدة، انماز بها الخطاب الروائي الذي يعنى بالآخر ، وقد تزامن ذلك مع جملة من التحولات الكبيرة في العالم وعلى مستويات عدة ، تركت بصماتها على الرواية العراقية خاصة والعربية عامة ، وماترتب عليهما من آثار عميقة في الفكر العربي ، ولا سيّما الموقف من الآخر.

أما منهج البحث ، فيقوم على إعطاء الأولوية للنص الروائي ؛ للوقوف على بنيته الداخلية وتحليل دلالاته ، وقراءة صورة الآخر ، بكل ما تثيره من أسئلة وقضايا وإشكالات ، فكان الهدف أولاً وأخيراً الولوج إلى عالم النص الروائي . بيد أن الاعتماد على النص الروائي ، لم يمنع من الإفادة من معطيات مناهج أخرى ، ولا سيّما المنهج النفسي ، والمنهج الاجتماعي ، والمنهج التاريخي.

وقد قامت الدراسة على تمهيد وثلاثة فصول ، و مقدمة وخاتمة ، خُصصَ التمهيد للتأصيل المعرفي لمفهوم الآخر في الحقول المعرفية والمجالات الإبداعية المتباينة من مثل: (المجال اللغوي ، و المجال النفسي ، و المجال الفلسفي ، و المجال الاجتماعي ، و المجال الأدبي) ، و محاولة الوقوف على المصادر التي تستقى منها صورة الآخر في الرواية العراقية .

تناولنا في الفصل الأول (صورة الذات إزاء الآخر) في مبحثين: مثل الأول الذات الكلية العربية التي تتبنى القضايا العربية في مواجهة الآخر ، واهتمّ الثاني بالذات الفردية ممثلة بـ (الذات القوية الصلبة ، و الذات المتأرجحة ، و الذات

المغترية والاغترابية) وخصصنا الفصل الثاني لدراسة (صورة الآخر) ، وقد توزع على ثلاثة مباحث ، كان هدف الأول منها دراسة صورة الآخر الخارجي (الأجنبي) ، وكان هدف المبحث الثاني دراسة صورة الآخر الداخلي (المحلي) ، واهتم المبحث الثالث برصد اتجاهات رؤية الآخر ، التي توزعت بين الاتجاه المثالي ، والاتجاه الموضوعي .

ودرسنا في الفصل الثالث (اللغة الروائية) ، في مبحثين : اهتم الأول منه بدراسة أنماط التعبير اللغوي ممثلة بالتشكيل اللغوي عبر (اللغة السردية المباشرة ، واللغة السردية الشعرية ، و لغة الآخر) ، ولغة التفاعل النصي عبر (الخطاب الديني ، والخطاب الأدبي) ، و اهتم الثاني بدراسة لغة الحوار بنوعيه الخارجي ، والداخلي .

وأنهينا الدراسة بخاتمة سجلنا فيها أهم النتائج التي توصل اليها ، وثبت للمراجع والمصادر ، فضلا عن خلاصة باللغة الإنكليزية .

ومن الأمانة و الاعتراف بالحسنى ، أن نخص بالشكر وافيته و وافرته ، أستاذي المشرفين على الأطروحة الدكتور عناد اسماعيل الكبيسي و الدكتور باسم صالح حميد ، اللذين تولياها برعايتهما منذ أن كانت أفكاراً بسيطة ، إلى أن استوت على سوقها ، وأمدّاهما بنتاج خبرتهما وحصيلة تجربتهما ، ووافر وقتهما ، فجزاهما الله عنا، وعن العلم وأهله أحسن الجزاء ، وجعل هذا العمل في ميزان حسناتهما .

ويلزمي واجب الشكر أن أسجل شكري الجزيل للأساتذة الفضلاء أساتذة قسم اللغة العربية في كلية الآداب وأخص منهم بالذكر الأستاذ الدكتور سمير الخليل ، لما وجدته من عون وتسهيل ورعاية ، تذكر فتشكر ، قد كانت لي خير حافظ وخير معين ، فجزاهم الله خير الجزاء وأعظم الثواب .

وأتقدم بوافر الشكر والعرفان للروائيين العراقيين : سميرة المانع ، ومحسن الرملي ، و أنعام كه جه جي ، و نجم والي ، وعلي بدر ، لما قدموه من مصادر ومعونة ومشورة أفادت الدراسة .

وأشكر الأصدقاء والزلاء، الذين كانوا خير سند في مراحل هذه الدراسة ، وأخص منهم : د حيدر التميمي ، و د فاطمة بدر، وخباب سمير ، و محمد جبار .

وأتوجه بالشكر والعرفان إلى أعضاء لجنة المناقشة المحترمين ، لتفضلهم
بالموافقة على مناقشة أطروحتي ، وإبداء ملاحظاتهم القيمة التي ستنتفع البحث
وبالباحث .

آمل أن أكون قد وفقت - بعض التوفيق - في تناول جوانب هذا الموضوع ،
واستطعت أن أفي صورة الآخر في الرواية العراقية المعاصرة ، بعض حقها ،
وحسبي أنني أخلصت النية ، وبذلت كل ما استطعت من جهد لتعطي هذه الدراسة
الثمرات المرجوة منها .

والله ولي التوفيق

الباحث